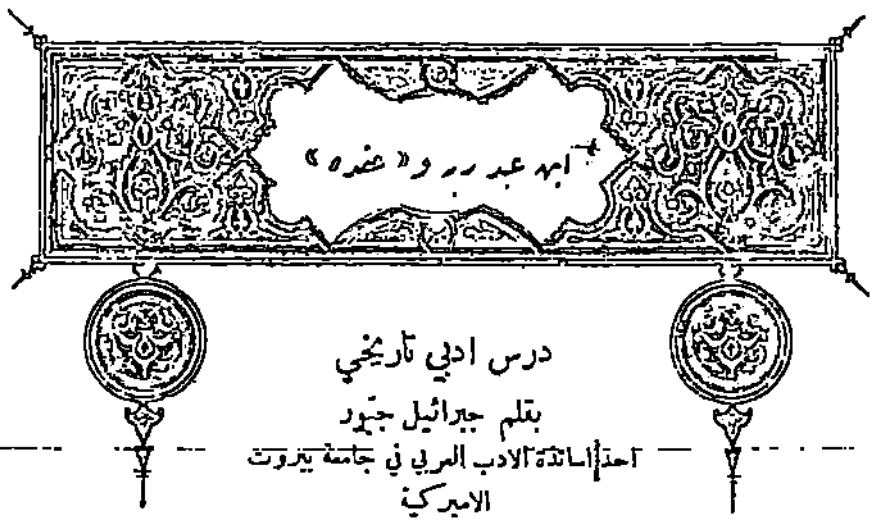

درس ادبي تاريخي
بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

٧

قيمة العقد التاريخية (تابع)

نظره الى تاريخ الاندلس واقتصاره على قدر ضئيل منه

ذكرنا غير مرة ان اخبار ابن عبد ربه عن الاندلس قليلة الاهمية . ولعلّ الصاحب بن عباد قد انصف العقد ، عندما طلبه وقرأه وقال : « هذه بضاعتنا ردّت الينا . ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم ، وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا . لا حاجة لنا فيه . »[1]

وغريب جدًا ان يسكت ابن عبد ربه عن تصوير بعض النواحي من الحياة الاجتماعية والادبية في قرطبة زمنئذٍ ، وبالاخص في بلاط الامراء ، فلا يذكر الا اسماء امراء الاندلس من عبد الرحمن الداخل الى عبد الرحمن الناصر مع شيء قليل من ترجمات حياتهم . غير انه قد ترك لنا في عقده ارجوزة تاريخية في الانتصارات التي احرزها الخليفة عبدالرحمن الناصر على اعدائه في الاندلس ضمّت ١٤٤ بيتًا تكاد تكون من اقدم الاشعار العربية في الملاحم . ولقد وضعها على الطريقة التوقيتية بحيث ذكر فيها اخبار الغزوات سنةً فسنة ، مبتدئًا من سنة ٣٠٠ وانتهى بها الى سنة ٣٢٢ ، اي قبل موته بست سنوات . وقد حاولنا

١) يقرب ٢ : ٦٧ – وراجع القرآن ١٢ [يوسف] ٦٥ « . . . قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا . . . »

تعليل سكوته عن هذه الست سنوات عند بحثنا عن حياته. فليراجع هذا الامر هناك . غير انه فاتنا ان نشير الى اننا عثرنا في العقد على ما يفيد ان ابن عبد ربه نفسه اوقف الارجوزة عند سنة ٣٢٢[1]، فليتنبّه الى هذا.

ولارجوزة ابن عبد ربه قيمة تاريخية ثمينة من حيث ذكر الوقائع وزمن حدوثها والاماكن ، واسماء كثير من القوّاد الذين اشتركوا فيها من جانب العرب، واسماء كثير من المدن والحصون التي سقطت بايديهم في السنوات المذكورة ، مع ذكر زمن موت بعض القوّاد وربما اتى في الارجوزة على بعض الاخبار التي تهمّ المؤرخين للزمن الذي سبق وقائع الناصر ، كأن يقول مثلاً في خبر سقوط طليطلة سنة ٣٢٠

فاذعنت وقبلها لم تذعن ولم تفد من نفسها وتمكن
ولم تدن لرجا يدين ، سبعاً وسبعين من السنين (٢

وتظهر الارجوزة وجهة نظر ابن عبد ربّه كمسلم يؤرخ وقائع الناصر ، وموقفه ازاء اعداء الخليفة الاندلسيين لاسيا النصارى منهم . وسنعرض لهذا الامر بمناسبة اخرى.

نزعته المغربية

ولئن كان هؤلاء العرب ومواليهم في المغرب يقلّدون المشارقة في نهضتهم ويحذون حذوهم في علومهم وآدابهم ، فقد كانوا بالوقت نفسه يتعصبون لاقليمهم واهليه ، ويحاولون في بعض الاحيان اظهار ان ما عندهم من علم وادب لا يقلّ عما عند المشارقة ، وترى هذه الظاهرة قوية في كتاب المقّري « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . . . » حيث خصّصت الفصول الطوال لتبيان مفاخر رجال الاندلس ، اذا قوبلوا باهل المشرق ، وذكر انهم لا يقلّون عنهم من مختلف الوجوه.

اما ابن عبد ربه فيختلف عن هؤلاء المؤلفين المغاربة في امر اظهار هذه

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٣
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٦

النزعة . ولعلها لم تكن قوية في نفوس رجال العالم ، زمن ابن عبد ربه ، بينما نراها على اشدها في العصور التي تلته . زد على ذلك ان ابن عبد ربه لم يكتب كثيراً عن الاندلس وتاريخها ورجالها من علماء وادباء وشعراء . فمن الطبيعي اذاً ان يصعب علينا معرفة قوة هذه النزعة في نفسه ، وبالتالي درس اثرها في عقده . ومهما يكن من ذلك فاننا نرى ان ابن عبد ربه قد اظهر شيئاً من هذه النزعة في مقدمة عقده حيث قال :

« وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ليمام الناظر في كتابنا هذا ان لم نربنا على قائله وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور . »(١

ونراه في كثير من المواضع في عقده ، اذا ذكر شعراً لاحد المشارقة ، اتبعه بشعر له كأن يقول مثلاً : « قال ابو زبيد في وصف الاسد » الخ . ثم يقول : « ومن قولنا في وصف الاسد ما هو اشبه به من هذا » الخ .(٢ كذلك يذكر معارضته لصريع الغواني في قصيدته :

« ادبرا عليّ الراح لا تثربا قلبي »

ويروي ابياته التي قالها على رويها :

« أتقتلني ظلماً وتجحدني قتلي »

ثم يعقبها بقوله :

« فأن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضل شعر صريع عنده الا بفضل التقدم ولاسيما اذا قرن قوله في هذا الشعر :

كتمت الذي القى من الحب عاذلي فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل

بقولي في هذا الشعر :

واحببت فيها العذل حباً لذكرها فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل . » (٣

ويذكر اشعاراً للعباس بن الاحنف ، ولجميل بن معمر ، ولعمر بن ابي ربيعة ، « في رقة التشبيب » ، ثم يعقبها بشعر له يقدم له بقوله : « ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره . »(٤ ويقول في موضع

١) ابن عبد ربه ١ : ٢
٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٦٤
٣) » » ٣ : ١٧٥
٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٤

آخر :« اعلم بانك متى نظرت بعين الانصاف وقطعت بحجة العقل علمت ان لكل ذي فضل فضله ولا ينفع المتقدم تقدمه ولا يضر المتأخر تأخره.»[1] وله شعر يفخر به على شعراء المشرق:

« هنا تنتهي قوافي الشعر في هذا الرويّ
قوافٍ البست حلياً من الحسن البديعي
تعالت عن جرير ، بل زهير ، بل عديّ.»[2]

وله ايضاً في آخر قصيدة :

« هذه جملة امثال فان شاء فيحكي
ابطلت كل يمانيّ وشاميّ ومكّي » [3]

ونرى ان اكثر هذه الامثلة تُفسَّر ايضاً على اساس النزعة الشخصية . انما يجوز ايضاً ان يشتمّ منها شيء من النزعة الاقليمية .

ونرى ان ابن عبد ربه ، عند ذكره ترجمة الامراء الاندلسيين الذين تولوا الحكم حتى زمانه ، يجزل لهم المدح ويورد عنهم اخباراً في تبيان مفاخرهم. وقد ذكر خبر مدح ابي جعفر المنصور عبد الرحمن الداخل ، وتسميته اياه بصقر قريش ، وتفضيله اياه على معاوية وعبد الملك[4] . ويذكر احدى غزوات الناصر المعروفة بغزاة المنتلون التي افتتح فيها حصون كثيرة فيقول :« ولم يكن مثل هذه الغزاة لملك من الملوك في الجاهلية والاسلام.»[5] كذلك يذكر جوده ويقول :« لم يعرف لاحد من الجاهلية والاسلام الا له وقد ذكرت ذلك في شعري الذي اقول فيه :

يا ابن الخلائف والعلى للمستلي والجود يعرف فضله للمفضل
نوّهت بالخلفاء بل اهلتهم حتى كأن نبيلهم لم ينبل
اذكرت ، بل انسيت ما ذكر الاولى من فعلهم ، فكأنه لم يفعل
واتيت آخرهم ، وشأوك فائت للآخرين ، ومدرك للاول .
الآن سمّيت الخلافة باسمها كالبدر يقرن بالسماك الاعزل
تأبى فعالك ان تقرّ لآخر منهم،وجودك ان يكون لاول [6]

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧١ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٨
٣) » » ١ : ٢٠٧ ٤) » » ٢ : ٢٥٧
٥) » » ٢ : ٢٦٢ ٦) » » ٢ : ٢٦٣

ولا بد لي من الاشارة الى ان هـذه النزعة — ان ثبت ان في نفس ابن عبد ربه شيئاً منها — ليست من الاهمية كما أسلفنا ، حيث ان ابن عبد ربه لم يُعنَ كثيراً في تدوين اخبار بلاده ، بل ان هناك من حسبه مقصراً من هذه الناحية . كتب ابو علي الحسن التميمي القيرواني الى ابن حزم يـذكر تقصير اهل الاندلس في تخليد اخبار علمائهم ومآثر فضـلائهم وسير ملوكهم . ثم أتى على ذكر ابن عبد ربه وعقده فقال : «على انه يلحقه فيه بعض اللوم لاسيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ومناقب ملوكه يتيمة سلكه . إكثر الحزّ واخطأ المفصل واطال الهز لسنن غير مقصل ، وقعد به ما قعد باصحابه من ترك ما يعنيهم واغفال ما يهمهم .»[1]

نظره كمسلم الى النصارى في الاندلس

ونتبين هذا من الاخبار القليلة التي دوّنها في عقده عن الاندلس وتاريخ الامراء والخليفة عبد الرحمن الناصر الذي عاصره فيها ، ومن ارجوزته التاريخية في ذكر وقائع الخليفة المذكور . ويظهر من هذين المصدرين ان ابن عبد ربه كان شديد الحملة على النصارى ، اعداء المسلمين في الاندلس ، ينعتهم تارة باهل الشرك والكفرة والاعلاج ، وطوراً بالشياطين والكلاب والخنازير . ومن الخير ان ندلّ على ذلك بامثلة معينة . قال في ترجمة الامير محمد : « وكان الامير محمد غزّاء لاهل الشرك والخلاف .»[2] وقال في ترجمة الامير المنذر بن محمد : « ثم غزا الى المارق المرتر عمرو[3] بن حفصون . . . فلم يجد الفاسق منفذاً ولا متنفساً .» وقال في موضع آخر : «فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها .»[4] وترى هذه النعوت كثيرة في ارجوزته وشعره اللذين يمدح الناصر فيهما ويذكر انتصاراته :

---

١) المقري ٢ : ٧٦٧ ، وطبعة اوربة II : ١٠٩

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٣٦

٣) كذا في طبعة بولاق ، ولعلّ «المرتر» تصحيف «المرتد» راجع الطبعة الازهرية ٣ : ٢٠٦ ؛ اما عمرو فصوابها : عمر

٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦١

مات النفـاق واعطى الكفر ذمته ، وذلّت الخيل الجامّ وأسراجـا.
ادخلت في قبّة الاسلام مارقـة اخرجتها من ديار الشرك احراجا.
غـادرت في عفرتي جيّان ملحمـة ابكيت منها بارض الشرك اعلاجا.(١

وقال ايضاً :

ومن ابـاد الكفر والنفاقـا ، وشرّد الفتنة والشقاقـا. (٢

وقال في خبر اول غزاة :

ولم يزل حتى انتحى جيّانا ، فلم يـدع بارضهـا شيطانا.
ولم يـدع مريـة والجزيره ، حتى كوى اكلبها الغريره
فـايقن الخنزير ، عنـد ذاك ، ان لا بقاء يرتجى هنـاك. (٣

وقال في خبر غزاة سنة ٣٠٦ :

ثم اقـاد الله من اعـدائه واحكم النصر لاوليائه.

الى ان يقول عن الناصر ويسميه بالامام :

ان احتمى للواحد القهـار وفاض من غيظ على الكفّار(٤

ويقول في خبر الغزاة نفسها عن اعداء الخليفة :

فـاقبل الطاغ لهم مغيثـا ، يوم الخميس ، مسرعاً حثيثا ،
بين يديه الرجل والفوارس وحوله الصابان والنواقس.

ثم يقول :

ففاز حزب الله بالعلجـان ، واعزمت بطانة الشيطان.

ثم يذكر خبر قائدين من جيش النصارى ، ويرتكب خطأً فاحشاً في زعمه انهما اقسما بآلهة وثنية :

فاقسما بالجبت والطـاغوت لا جزما دون لقاء الموت.(٥

ولعله كان يعلم ان النصارى لا تقسم بها ، انما قصد ذكر هـذا تحقيرا لها ولدينها.

ويقول في خبر غزاة بلده :

فاذعنت ولم تكن بذمته ، واستلمت كافره لؤمته.
فقدمت كفارها للسيف ، وقتلوا بالحق لا بالحيف.(٦

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٣ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٤
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٦ ٤) » » ٢ : ٢٦٧
٥) » » ٢ : ٢٦٨ ٦) » » ٢ : ٢٦٩

ويستمر على هذا النحو من الكلام في كثير من المواضع في ارجوزته ، حتى يقول في غزوة سنة ٣١٢ وفتح بابلونه :

فكم بها وحولها من اغلف ... جمعي عليه دمع عين الاسقف !
وكم بها منزل من كنائس ... بدّلت الاذان بالنواقس !
يبكي لها الناقوس والصليبُ ... كلاهما فرض له النحيبُ . (١

ويقول في موضع آخر :

عصابة من شيعة الشيطان ، ... عدوة الله والسلطان ،
فحزمت اجسادها حزما ... واصليت ارواحها جهنّا . (٢

ويقول في غزوة سنة ٣٢٠ :

صبرا الى المدينة اللعينه ... انسها الرحمن من مدينه !
مدينة الشقاق والنفاق ، ... ومربد الفسّاق والمرّاق . (٣

وينتهي من ارجوزته بقوله :

ثم شفى الامام من شجانه ، ... وقد شفى الشجيّ من اشجانه .
وامن القفار من ايجافها ، ... وطهّر البلاد من ارجاسها . (٤

نظره كمولى للعرب

في العقد كتاب هو « اليتيمة في النسب وفضائل العرب » ذكر فيه ابن عبد ربه نسب قبائل العرب ، واورد باباً في فضلها أتى فيه على اقوال كثير من الناس من عرب وموال ، وقد كادوا يجمعون على الشهادة بفضل العرب . وبعد ان يفرغ ابن عبد ربه من ذكر انساب العرب من شماليين وجنوبيين ، يدوّن رأي الشعوبية — اهل التسوية — وحجتهم في انهم متساوون مع العرب ، واستنادهم الى احاديث نبوية يقرنونها الى آيات من القرآن في معناها . قال :

« ومن حجة الشعوبية على العرب ان قالت انا ذهبنا الى العدل والتسوية وان الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يدٌ على من سواهم . » وقوله في حجة

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٢ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٥
٣) » » ٣ : ٢٧٦ ٤) » » ٣ : ٢٧٨

الوداع ، وهي خطبته التي ودع فيها امّته وختم نبوّته : « ايها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضلٌ الا بالتقوى » وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم »[1] فايتم الا فخرًا وقلتم لا تساوينا . »[2]

ثم يعقب ابن عبد ربه هذه الاحاديث وما يوافقها من القرآن باقوال الشعوبية في تبيان مآثرهم ومفاخرهم وعلومهم وذمهم للعرب . ثم يعود فيورد ردّ ابن قتيبة عليهم ، ويعقبه بردّ الشعوبية على ابن قتيبة[3] . ولا يفوته ان يرمي دلوه بين الدلاء فيقول :

« وما رأيت اعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كل ما بنى في اوله ، فقال في آخر كلامه واعدل القول عندي ان الناس كلهم لاب وام خلقوا من تراب واعيدوا الى التراب . . . فهذا نسيم الاعلى الذي يردع به اهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء . ثم الى الله مرجعهم فتقطع الانساب وتبطل الاحساب ، الا من كان حسبه التقوى او كانت مائته طاعة الله . »[4]

ولم نرَ في كل ما اورد ابن عبد ربه في باب الشعوبية (اهل النسوبة) واقوالهم ، وردّ ابن قتيبة عليهم وتعليقه عليه ، ما يبين شيئاً صريحاً من وجهة نظر ابن عبد ربه في الامر . وجلّ ما نستطيع الجزم فيه هو انه ينقد مناقضة ابن قتيبة نفسه في مسألة تفضيل العرب على سواهم ليس الّا .

ويذكر ابن عبد ربه فصلًا في الكتاب نفسه في المتعصّبين للعرب اتى في آخره على قصة لا بأس في ان نوردها هنا ، لعلّ فيها ما يشير الى شيء من هذه الناحية في نفس ابن عبد ربه ، قال :

« قال ابن ابي ليلى : قال لي عيسى بن موسى ، وكان ديّانًا شديد العصبية : من كان فقيه البصرة؟ قلت : الحسن بن ابي الحسن ، قال : ثم من؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما؟ قلت : مولايان .

---

١) القرآن ٤٩ [الحجرات] ١٣ « يا أَيُّهَا النَّاسُ انَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ان أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

٢) ابن عبد ربه ٢ : ٨٥

٣) ابن عبد ربه ٢ : ٨٥–٨٨

٤) ابن عبد ربه ٢ : ٨٩–٩٠

قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن ابي رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار . قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ! قال : فمن فقهاء المدينة ؟ قلت : زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن ابي نجيح ، قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موال ! فتنحّر لونه ، ثم قال : فمن افقه اهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأي ، وابن ابي الزناد ! قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالي ! فاربدّ وجهه ، ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت : طاوس ، وابنه ، وابن منبه ! قال : فما هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ! فانتفخت اوداجه فانتصب قاعدًا ! قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبدالله الخراساني ؟ قال : فما كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ! فازداد وجهه تربّدًا واسودّ اسوادًا حتى خفته . ثم قال : فمن كان فقيه اهل الشام ؟ قلت : مكحول ! قال : فلكان بمكحول هذا ؟ قلت : مولى ! قال فتنفس الصعداء . ثم قال : فمن كان فقيه الكوفة ؟ (قال) فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتيبة وعمّار بن ابي سليمان ، ولكن رايت فيه الشرّ فقلت ابرهيم ، والشعبي ! قال : فما كانا ؟ قلت عربيّان ! قال : الله أكبر ! وسكن جأشه . » (١)

ويختم ابن عبد ربه كتابه هذا في النسب بخبر عن اعرابي دخل على سوار القاضي فقال :

« ان ابي مات وتركني وأخًا لي ، وخطّ خطّين ! ثم قال : وهجينًا ، ثم خطّ خطًا ناحية ، فكيف يقسم المال ؟ فقال له سوار : هنا وارث غيركم ؟ قال : لا ! قال : فالمال بينكم اثلاثًا ! فقال : ما احسبك فهمت عني ؛ انه تركني واخي وهجينًا فكيف يأخذ المجين كما آخذ انا وكما يأخذ اخي ! قال : أجل ! فغضب الاعرابي » (٢)

وروى في كتاب الياقوتة في العلم والادب قال :

«قال الحسن : حدثني ابي قال أمر الحجاج ان لا يؤمّ بالكوفة الا عربي . وكان يحيى بن وثاب يؤمّ قومه بني اسد ، وهو مولى لهم ، فقالوا : اعتزل . فقال ليس عن مثلي نهي ، انا لاحقّ بالعرب . فابوا . فاتى الحجاج فقرأ . فقال : من هذا ؟ فقالوا : يحيى بن وثاب . قال : ما له ؟ قال : امرت ان لا يؤمّ الا عربيّ فنحّاه قومه . فقال : ليس عن مثل هذا نهيت ، يصلي بهم . (قال) فصلى بهم الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، ثم قال : اطيبوا اماما غيري انما اردت ان لا تستذلوني . فاما اذا صار الامر اليّ فانا لا اؤمكم ، لا ولا كرامة . »(٣)

ومع انه قد يشتم شيء من ميل ابن عبد ربه الى تسوية المولى بالعربي فانا لا نستطيع ان نجزم بالامر ، لاسيما وان ابن عبد ربه في اكثر هذه المواضع ناقل راوٍ ليس الا . ولعلّ نظر العرب في الاندلس كان يختلف عن نظر العرب في المشرق الى الموالي ، من حيث المنزلة في الهيئة الاجتماعية .

١) ابن عبد ربه ٣ : ٩١ ٢) ابن عبد ربه ٢ : ١٢
٣) » » » ١ : ٢٠٧

بعض نواحي خلقه وأثرها في العقد

عدم استنكافه عن ذكر بذيء اللفظ وسافل المعنى

وربما من الخير ان نشير هنا الى ما المحنا اليه ، عند بحثنا عن حياة ابن عبد ربه ، من امر وصف خلقه من بعض النواحي . اورد المقّري قصة عن ابن عبد ربه وابي محمد يحيى القلفاط الشاعر ، اتى بها شاهدًا على سرعة جوّاب اهل الاندلس نسكت عن ذكرها لما فيها من بذيء اللفظ يبديه كل من ابن عبد ربه وصاحبه هذا الذي كان يناظره . ويظهر من هذه القصة ان ابن عبد ربه لم يكن جميل الوجه والقامة ، بل كان آدر يدرم في مشيه ، فاتحًا بين ساقيه ، وكان اطلس اللحية ، وان القلفاط هزأ به ، ووصفه بصفة نسكت عن ذكرها . فاجابه ابن عبد ربه بما هو اقذع وامرّ . وقد ما كان بينهما من روابط الصداقة والمحبة ، فصنع القلفاط قصيدةً في هجائه اولها :

يا عرس احمد اني مزمعٌ سفرا فودّعيني مرًّا من ابي عمرا

ثم تهاجيا بعد ذلك . واتفق اجتماعهما عند بعض الوزراء . فسأل عن حاليهما فبدأ القلفاط مرتجلًا في هجو صاحبه ، وما ان اكمل البيت الاول حتى بدره ابن عبد ربه ببيت قاله مرتجلًا ايضاً على البحر والقافية ذاتها ، وهو غاية القصة صبَّ فيه جام هجوه مرًّا اقذعَ اشدَّ الاقذاع ، وابدى اسفل معنى . فانقطع القلفاط خجلا[1] .

وترى اثر هذه الناحية من خلق ابن عبد ربه في عدم استنكافه عن ايراد الاخبار في عقده مما يغلب فيها بذيء اللفظ وسافل المعنى . وليس بلائق ان تذكر هنا هذه القصص ، فليراجع بعضها في مواضعها التالية[2]

ميله للتعرّض للغير

ولعلّ القارئ قد لمس شيئاً من ميل ابن عبد ربه للتعرّض لكثير من

١) المقّري ٢ : ٨٣٢–٨٣٣

٢) ابن عبد ربه ٢ : ١١٩ و١٢٠ و١٢١ و١٥٦ ؛ و٣ : ٣٠٢ و٣٠٤ و٣٠٥ و٤٢٥ و٤٣٠ و٤٣٤ و٤٣٥

الذين اخذ عنهم بشيء من الانتقاد . فلقد اخذ عن ابن قتيبة كثيراً مما كتبه في مؤلفاته ونقله الى عقده. غير انه لم يفته ان ينتقده وينعى عليه بعض مواقفه كأن يقول مثلاً: «ولم أرَ اعجب من ابن قتيبة في كتابه تفضيل العرب انه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب . ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية فنقض في آخره كلّ ما بنى في اوله.»[1] كذلك انتقد رأي ابن قتيبة في الاشربة وعنون انتقاده هذا بقوله : «مناقضة ابن قتيبة في الاشربة .» ثم ذكر ما يراه ابن قتيبة في الامر ، وردّ عليه بقوله : «وهذا الشاهد الذي استشهد به (يعني ابن قتيبة) . . . شاهد عليه لا شاهد له لان الناس. . .الخ»[2] وردّ عليه في موضع آخر في الباب نفسه[3] . وعارضه في موضع آخر ، قال: «قال ابن قتيبة لم يقل في التواضع بيت ابدع من قول الشاعر في بعض خلفاء بني امية[4]

يغضي حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلّم الا حين يبتسم

واحسن منه عندي. . .»[5]

وتعرّض للمبرّد عند ذكره بعض ما اخذه عنه ، وذمّه ، وندّد بما جمعه في الروضة وهزأ به ، وقال :

«ان المبرّد لم يختر لكل شاعر الا ابرد ما وجد له حتى انتهى الى الحسن بن هانيء ، وقلما يأتي له بيت ضعيف لرقة قطنته وسبوطة بنيته وعذوبة الفاظه ، فاستخرج له من البرد ابياتاً ما سمعناها ولا رويناها ولا ندري من اين وقع عليها . . . وجلّ اشعاره المصريات بديعة لا نظير لها فحظر بها كلها وتخطّاها الى التي جانسته في برده فاحسبه لقبه هذا الاسم المبرّد الا لبرده. وقد تحير لابي العتاهية اشعاراً تقتل من بردها وشففها وقرظها بكلامه فقال ومن شعر ابي العتاهية المستظرف عند الظرفاء المخيّر عند المتقاء قوله :

يا قرة العين كيف امسيت اعزز علينا بما تشكيت

وقوله :

آه من وجدي وكربي آه من لوعة حبي

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٨١ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٦

٣) » » ٣ : ٤٠٦

٤) المشهور ان هذا البيت من قصيدة للفرزدق في الامام زين العابدين . والغريب ان ابن عبد ربه لم يلتفت الى هذا الامر ولم ينتقد ابن قتيبة فيه

٥) ابن عبد ربه ١ : ١٥

ما اشدّ الحبّ يا سبحانك اللهم ربّي.(١

وانتقد سيبويه في استشهاده ببيتين في كتابه اورد قافيتيهما منصوبتين وخطّأه. ثم قال في آخر كلامه :« فما كان يضطر سيبويه ان ينصبهما ويحتال على اعرابهما بهذه الحيلة الضعيفة.»(٢ وخطأ المبرّد ايضاً في شرحه امرًا بالموضع نفسه.

ولقد تعرّض ايضاً لكثير من الاشخاص الذين اورد بعض الاخبار عنهم. وقد قال في الامرأة التي شكت في صلاح عروة بن اذينة :« كذبت عدوّة الله. عليها لعنة الله. بل لم يكن مرائياً ولكنه كان مصدورًا فنفث.»(٣

كذلك نراه عند ذكره خبر مسير مسلم بن عقبة المرّي الى المدينة، ودخوله اليها، وتغلّبه على اهلها، يقول في آخر هذا الخبر « ومات مسلم بن عقبة، لا رحمه الله. ومضى حصين بن نمير بجيشه ذلك فلم يزل محاصرًا لاهل مكة حتى مات يزيد لا رحمه الله.»(٤

وتعرّض للمختار فقال عنه :« ولم يكن صادق النيّة ولا صحيح المذهب. وانما اراد ان يستأصل الناس فلما ادرك بغيته، اظهر للناس قبح نيّته.»(٥

ولولعه بالتعرّض والنقد اكثر من الروايات التي فيها ذكرٌ لما أخذ على الشعراء من الاخطاء، وافرد لها باباً خاصاً(٦. ووضع باباً آخر لما غلط فيه على الشعراء.(٧. وانتقد فيه هؤلاء الذين لم ينصفوا الشعراء بقوله « واكثر ما ادرك على الشعراء له مجاز وتوجيه حسن. ولكنّ اصحاب اللغة لا ينصفونهم وربما غلطوا عليهم وتأولوا غير معانيهم التي ذهبوا اليها.»(٨

وافرد باباً للرقائق من الشعر لم يفته ان يستهلّه بالتعرّض لاكثر الناس قال: «وقد جبل اكثر الناس على سوء الاختيار وقلة التحصيل، مع لؤم الغرائز وضعف الهمم. وقلّ من يختار من الصنائع ارفعها ويطلب من العلوم انفعها.»(٩

١) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٨
٢) ابن عبد ربه ٣: ١٧١
٣) » » ٣: ١٢٦
٤) » » ٢: ٢١٢
٥) » » ٢: ٢١٩
٦) » » ٣: ١٥٥–١٦٢
٧) » » ٣: ١٧١
٨) » » ٣: ١٧١
٩) » » ٣: ٢٦٨

وذكر في الباب نفسه — ومن الخير ان نشير الى انه سمّى الباب باباً من الرقائق ، وهو بالواقع انتقاد الذين ما فرقوا بنظره بين الرقائق من الشعر وضعيفه ، اورد في الباب نفسه — نكرّر القول — ما يشفّ عن طبعه هذا الذي نصف ، قال :

« ونظير هذا من سوء الاختيار ما تخيّره اهل الحذق بالغناء والصانعون للالحان من الشعر القديم والحديث ، فانهم تركوا منه الذي هو ارقّ من الماء وامضى من رقة الهواء وكل مدنّ رقيق قد غذّي بماء العقيق وغنّوا بقول الشاعر :

فلا انسى حياتي ، ما عبدت الله لي رباً ،
وقلت لها : انيليني ، فقالت: تعرف الذنبا ،
ولو تعلم ما بي لم ترَ الذنب ولا العتبا .

واقل ما كان يجب في هذا الشعر ان يضرب قائله خمسمائة ، وصانعه اربعمائة ، والمغني به ثلثمائة ، والمصغي اليه مائتين .» (١

ويرى القارئ ايضاً باباً آخر في العقد عنونه المؤلف بـ«ما يعاب من الشعر وليس بعيب» (٢ وذكر فيه اخباراً كثيرة من هذا النوع انتقد فيها الذين عابوا هذه الاشعار ، منها ما يشفّ ايضاً عن طبعه هذا وولعه بالانتقاد قال:

« ومما عيب من الشعراء(٣ وليس بعيب ما يروى عن مروان بن الحكم انه قال لخالد ابن يزيد بن معاوية وقد استنشده من شعره فانشده :

فلو بقيت خلائف آل حرب ولم يلبسهم الدهر المنونا
لاصبح ماء اهل الارض عذبا واصبح لحم دنيام سمينا

فقال له مروان : منونا وسمينا والله انها القافية ما اضطرك اليها الا العجز . وهذا مما لا عجز فيه ولا عابه احد في قوافي الشعر . وما ارى العيب فيه الا على من رآه عيباً .» (٤

وان القارئ يشعر بروح ابن عبد ربه هذه في كل تعليق يعلّقه على اخبار هذا الباب. وتعرض ايضاً لابي النجم الراجز وخطأه في موضع في وصف الخيل (٥ وخطأ رؤبة ايضاً في الموضع نفسه (١ : ٦٤) وتعرّض لكثير من هؤلاء الذين أوّلوا بعض آيات القرآن على ما لا يروق له فخطأهم في التأويل. (٦ وكذلك تراه

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٩
٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٤٤
٣) كذا ، ولعلّها « من الشعر »
٤) » » ٣ : ١٤٥
٥) ابن عبد ربه ١ : ٦٤
٦) » » ٣ : ٢٢٢

في تعليقه على كثير من الاخبار التي اوردها في كتاب الياقوتة الثانية في الالحان مما يتعلق بامر اختلاف الناس في الغناء.[1]

ويظهر ان ابن عبد ربه كان مولعاً بوجه عام في المعارضة سواء أكان فيها انتقاد ام لم يكن . وقد كان في كثير من شعره الذي ذكره في العقد معارضاً لشعراء تقدّموه فترى مثلاً « ومما عارضت به صريع الغواني في قوله . . . »[2] او « ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره»[3] ، او يذكر ابياتاً لاحد الشعراء في وصف البين ثم يعقبها بقوله « ومن قولنا في البين »[4] او يذكر ابياتاً في قول العرب في الحمام يتبعها بشعره في الموضوع نفسه .[5] ولقد ذكر في هذا الباب — باب مقاطع الشعر ومخارجه — كثيراً من شعر القدماء في مواضيع متعددة ، دون ان يهمل القاء دلوه وذكر شعره في كل من هذه المواضيع دون استثناء.[6] . ولعلّ القارئ لا يزال يذكر ان كتاب ابن عبد ربه العقد نفسه لولا قليل لكان معارضة لكتاب ابن قتيبة « عيون الاخبار » . ولم يفت ابن عبد ربه ان ينتقد بعض كتب المؤلفين التي رجع اليها في مقدمة عقده حيث قال :

« وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الاخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لاكثر المعاني التي تجري على افواه العامة والخاصة وتدور على السنة الملوك والسوقة . »[7]

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ ٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥

٣) » » ٣ : ١٧٤ — وراجع جملة المناسبة ابن عبد ربه ١ : ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ الخ .

٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٢ ٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٣

٦) » » ٣ : ١٧١ — ١٨٧ ٧) » » ١ : ٢

(له صلة)